



من مآسى التاريخ

مصرع الدون كارلوس

الأديب محمد محمد مصطفى

—•—•—•—

قال الأستاذ محمد عبدالله عنان في كتابه « تاريخ المؤامرات السياسية »

« ... ما أفاضت سيرة من سير القصور في القرن السادس عشر على دولة الخيال والشعر قدر ما أفاضت سيرة الدون كارلوس ، وما تمت قصة إلى النفس من روعة وكآبة قدر ما تمت أساطير هذه القصة الجبيلة »

وأى سيرة أدعى للروعة والوحشة من سيرة ملك يقضى بالموت على ولده لمؤامرة قيل إنه دبرها لقتله . ثم يذهب في بطشه إلى حد تنفيذ هذا الحكم هذا ما يحفظ التاريخ من سيرة فيليب الثاني ملك أسبانيا وولده الدون كارلوس »

فوجئ الأمير بتحية صدرت إليه من خلفه ، فأنجحه يصره إلى مصدر الصوت فرأى صديقة الأمين الكونت « أجون » ... فقل اضطرابه قليلاً وسأل الكونت :

فإذا سألتك السبب قال : إن الشعب لا يحب ولا يشجع إلا هذا اللون ، وما درى أنه وحده الذى يقع عليه أغلب هذا الوزر . المعروف أن المنى الحق هو الذى لا يعرف إلا فنه ، وفنه فقط ولكن عبد الوهاب أراد أن يخالف هذه النظرية فمرف الفن وغير الفن ، وتأثر بميول ضد ميول وقد عرف عنه ذلك ومع كل فهو يصر على لونه ...

إن الفن موطنه السماء؟ ومن في السماء فوق الجميع وللجميع . فن ترك فنه وسماءه ليعيش فوق الأرض جرفه التيار الذى لا يرحم محمد السيد المربطى

— أتبعك جواسيس الملك الليلة يا كونت ؟

فابتسم هذا في خبث وأجاب :

— أبدأ يا مولاي ، فقد ألحت صورة الخمر على أعينهم فرتق بها الكرى فدخلت إلى جناحك من الباب الخلقى بعد أن مخطيت الأهوال في اجتياز الحدود سرّاً ...
— أنجيز أتيت ؟

فأجاب والابتسامة لا تفارق شفثيه :

— بكل خير

ثم أخرج الكونت من ثنايا ثوبه ورقة نشرها أمام ولى الهدى ، وجعل يمر عليها بأصبعه هامساً للأمير :

— بين شعاف هذه الجبال يا مولاي مستكن قواى ، فإذا ما جن الليل انضمت إليها قوات أمير أورنج تتبعها قوات الكونت هورن^(١) . وعلى سموك اجتياز الحدود سرّاً مساء منتصف مايو القادم لتعودوا على رأس هذه الجيوش إلى أسبانيا لتثل بها عرش هذا الشيخ الذى لم يتورع الليلة عن الزواج بطفلة فى سن حفيدته

وحمل الدون كارلوس آماله وأحلامه ، ومضى بها إلى حديقة القصر الملكى يرسل بين الحين والحين صفيراً خافتاً حتى عثر بين الخنائل على دوحة استندى بها حتى لا يتأله برد الليل إن غلبه النوم تحبها

وتسربت خيوط الفجر من ثوب الليل ، ولا ينمض لعروس الملك جفن ، وتشعر الفتاة لرؤية عريسها الشيخ الذى يغط إلى جانبها بهم يحتم على روحها ، فتتسلل مارقة إلى حديقة القصر الملكى ، وتسير بين رياضه على غير هدى ...

سارت بين الخنائل تناجى النجوم وتلبها الفضا يخفق في عالم مجهول . ثم أفلتت منها صرخة خافتة إذ رأت أمامها شاباً كأنما قد تشاءبت عنه الأرض

(١) أسراء الأراضى السفلى (مولاندة والبلجيك) وكانت وقتئذ تابعة لأسبانيا

ويشفق مدير البريد أن ينكشف أمره فتتاله يد الملك، فينقل إليه رغبة الأمير ...

ويأمر الملك بالقبض على ولده وإيداعه السجن، فتضبط أسلحته ونقوده وأوراقه التي دلت على مشروع محاولة استيلائه على الأراضي السفلى ودحر الملك ثم الجلوس على عرش أسبانيا. فأبلغ الملك الحادث إلى الجهات الكبرى وانتدب محكمة عليا برأسته لمحكمة ولده

كان سجن الأمير غراماً على نفس الملك فطورت جوانبها على حرق حبه، وأضحت ذاهلة وانية ترى القصر كأنه قطعة من الجحيم، وعرفت عن الطعام حتى رق جلدها وشحب لونها

ولقد تتجامل على نفسها التطوف بمجالس غرامها وأعناش حبا تدب في رفق كأنما قد حطمت قواها السنون، فإذا جلست في مكان ضمهما يوماً خيل إليها أنه إلى جانبها يضمها ويحنو عليها فتخشى أن يكون ذلك وهماً فتتحسس يديها فلا تقع على شيء فتقف فزعة ومحوم حول نفسها وتسقط صارخة :

— يا كارل ...

فتردد جوانب القصر صيححتها :

— يا كارل ...

وكان صفاء عينيها الجليتين وتدلهمها يمان عما تكابده من حر الحب وبالع الوجده

وينظر الملك إليها فيراها متلفة آيسة وقد أطفأ الحزن بريق عينيها فيهدم لها قلبه أنهداما ويسألها عن سر وجومها واكتئابها فتفجرباكية وتحنو عند قدميه .

ويعلم الملك أنه الحب فيستضحك حتى تبدو نواجذه ويمسك بيديها الصغيرتين لينهضها فتأبى إلا أن يسمع لشكاها ...

— خير . أأستزل لك من السماء نجماً تقرين به عينا ياطفلي الحبيبة ؟

— أقسم على طاعتي فيما أرجوه منك .

— لك هذا .

— أن تطلق سراح ولدك .

فأربد وجه الملك وعبست أساريره وأشاح عنها قائلاً :

— أشغفك حبا ذلك الولد النر ؟

— حباً ملك على نفسي

— فلم لا تدفعين هذا الحب عن قلبك وهو لم يزل بعد وليد ؟

— إنه ولد عاتيا قويا

— ترى بعثت روعة هذا الفجر في نفسك الاكتئاب أيها الشاب ؟

— وى ... من أنت ... ومن أي فردوس فررت يا فتاة ؟ فيشرق الابتسام على ثغر الفتاة وتقول للشاب المائل أمامها في سداجة الطفولة ومرحها :

— الملكة ... ومن أنت ؟

فيقف الدون كارلوس في تودة ويشخص يبصره إلى الصبية يبعث الهواء بشفوف نومها فيبرز نهدها الصنيران، ويظهر تقاسيم جسمها الفتان، ويتمم الشاب في حقوت :

— عروس أبي ... أقصد الملك ... وإلى أن ؟

— إلى الفجر وسحره

ويأسى الأمير لهذا الجمال الذي سيدوى في ظل والده الشيخ ويدرك من حديثها نقاء سريرتها فيدرج بها على العشب النضير هوناً .. يتسامران فتجرده من قلبه ولبه، ويأخذها بشبابه وجهه، ويدو لها وجه الشيخ بلحيته المرسله كأنه شيطان مريد، وتنظر إلى ولي عهده فتدخل من عينيها الجليتين إلى جنة الحب، ويخفق له قلبها الغض التعتش إلى الترام ...

وفي غفلة من الدهر كأنما يختلسان اللقاء على الربى وبين الخماثل، فهي لا تعرف السعادة إلا في حضنه الفتى الحبيب، وهو قد تدله بها فلا يمدل بقبلاها المسكرة ما في بطون الأرض وعلى سطحها من أذخار وكنوز ...

وينظر الملك إلى طول لبها في الحديقة فيرتاب ومحوطها بعيونه فتثقل إليه الأخبار ...

وعلى إحدى الربى وقف الملك مستتراً يرى العاشقين الصنيرين وكيف ينهلان السعادة ويستمتع إلى وسوسة قبلاهما الناعمة فيحرق الأرم ويستجمع ما تبخر من صبره ويولى عنهما هامساً بينه وبين نفسه :

— ليكن هذا بينهما لقاء الوداع

ويتأوه من أعماق نفسه ويهتف :

— أما وقد بليت أيضاً بحبها فستعيش هذه الفتاة لأن قلبي يريد لها الحياة ... أما هذا الوغد ... وهدد بقبضته في الهواء ومضى لسيبله في طريق القصر

وراح ولي العهد يستعرض أصدقاءه ليختار من بينهم من يعمده بخيل يرحل عليها خفية إلى الحدود، فيقع اختياره على مدير البريد ...

— لم البكاء يا إيزا وهو يثلف عينيك ؟
 — ومن أخرى متى بطول البكاء ؟
 — أنا ... لهول ما أفكر فيك ولفرط ما عاث الحب في قلبي
 وأمانتي حياً لبعذك بينا يمينا هذا المعجوز الحيزبون بين أعطافك
 ناعماً بجمالك مخفجاً في ظلك ؟
 ففاضت عيناها بالدمع فحس عبراته وكبت عاطفته ، ولم تشأ
 أن تخبره بوعده الملك لها بتبرئته لعدم ثقها بتنفيذ هذا الوعد وخشية
 أن يظن الدون كارلوس أنها خدعته إذا ما خنت الملك بوعده
 حتى إذا أشرقت غرة الصبح انتزعت نفسها من بين أحضانها
 وعادت إلى القصر تتأوه من قلبها المذهب المفؤود
 سيق الأمير إلى قاعة المحاكمة وقد بدا على وجهه السامع علام العناء .
 فلما رآه الملك عبس في وجهه وبسر . وأخذت عينا الملكة الجليتان
 ترسلان السمع مدرارا فتتضو عن صدرها الجليل ثوبها لتخفيه فيه
 وتقدم الدون كارلوس تنوء قدماه بحمل جسمه الوائى حتى انتهى
 إلى مقعد أعدله لجلس عليه وأخذ يردد الطرف بين الملك حيناً
 وأعضاء المحكمة أحياناً فيزى على وجوههم مسحة الجذ والاهتمام .
 وقطع الملك رهبة السكون حيث أمر بإبداء المحاكمة فوقف
 المدعى (البرنس إيفولى) وألقى بيانه مسبهاً عن محاولة الدون كارلوس
 الاعتداء على الذات الملكية بوضعه مشروعاً لاغتيال أبيه ومحاولة
 انتزاع الأراضي السفلى ، واختتم بيانه بطلب اعدامه
 فتحرك الملك في مقعده قليلاً وقال بصوت هادئ :
 — ألدريك ما تقوله يا كارلوس ؟
 فهض الدون كارلوس متثاقلاً وقال بثبات :
 إني لا آس في وجه أحدكم رأفة ولا رحمة ، وكلكم كشق
 مقص الفناء ، كل يتم للاخرهممة القضاء على ؛ بيد أنني أود أن ألقى
 حكم إعدائى من شفتين غير شفتيك ، فهل لى أن أرجو المحكمة
 أن تنطق مليكتي بهذا الحكم ؟
 فرد المدعى قائلاً :
 — ولكن الملك رأس الدولة ورئيس المحكمة
 فهتف الدون كارلوس :
 — والمملكة جسم الدولة فهل تمش رأس بلا جسم ؟ فاشتد
 غضب الملك وموجده على ولده وتهامس قليلاً مع الأعضاء ،
 ثم اعتدل في جلسته ونطق بالحكم
 ودوى حكم إعدامه في أذن الملكة كهزم الرعد فاستهولته
 وهبت عجلانة إلى الدون كارلوس فاحتضنته وأخذت ترسل من عينيها
 إلى الملك شرراً كالقصر وهتفت صاخبة :

— فلن أفرج عنه إذا أبداً . وسأجعل من جسده للطيور
 طعاماً شهياً ...
 ويظلم القضاء في نظر المسكينه وتقول وما تملك نفسها :
 — فإذا ما قلت لك إني سأقضى على نفسي وأحملك وزرى
 إن مسسته بسوء ؟
 ففكر الملك ثم فكر ... وفتقت له أفكاره حيلة
 فدنا منها وقد زال أثر العيوس من وجهه قائلاً :
 — إني لم آمر بسجنه يا صغيرتى إلا لدفع بنيه عني ، ولئن
 أطلقتته ختر بحياته وأعاد المؤامرة بعد أن قتلها في مدها
 — سيفيد من درسك هذا له عبرة
 — أفتجملين من ذنك عهداً ألا يعيد الكرة ؟
 فأبكاها فرط السرور لقرب اتصالها ومدت إليه يدها باسمه
 — هذا عهد
 فرقت لها نفس الشيخ وقال :
 — إني أعدك بالحكم ببراءته
 — فهزتها نشوة الفرح وطوقت عنقه قائلة :
 — هل قلت إنك ستبرئه ؟
 فطرب الملك لمناق فتاته وأعاد القول باسمها : لك هذا
 وفي هدأة الفجر تسلت عروس الليل على أطراف قدميها
 وقلها يخفق ويدها عليه ... حتى إذا ما اجتازت الباب السرى
 ركبت عربة كانت تنتظرها خارج القصر وانطلقت بها في مسارب
 الوادى لتنتقلها خفية إلى سجن الحبيب
 وما اقتربت الملكة من باب السجن حتى نغلى عنه حراسه ،
 فطوت سلالم القبو أربماً أربماً ...
 وألفت حبيبها الموموق مكباً على نضد عتيق وقد سقط رأسه
 الجليل على صدره تتناوبه فورات اليأس والهمى ؛ فلما رأى الملكة
 انتعشت نفسه وصاح : إيزا
 — كارل
 وألقت نفسها بين أحضانها وأهوت بقبلاها على فمه وشعر
 الدون كارلوس بأنه في حاجة إلى الحياة عن ذى قبل وأحس
 أن قوة هرقل قد حلت فيه وأن قوى العالم لن تستطيع إفلاتها
 من بين يديه ولو تكالبت عليه جميعاً وكان بعضهم لبعض ظهيراً
 ولم يخف اقترار فقره عن عين طفلة الحبيبة ما رسمه الأمسى
 على وجهه وما يلاقيه في غياهب سجنه . فانتشرت نفسها عليه
 رقة ورحمة وأرسلت من عينيها عبرات حرارا ...
 قال الدون كارلوس :